اختلاف تقـــدير الأدباء للشعر
باختلاف أهوائهم وأذواقهم

بقلم محمد احمد برانق
المدرس بمدرسة الناصرية

الرسم والموسيقى وصور المعانى الجميلة كلها وسائل لتغذية العواطف ، وإحياء الشعور ؛ وميزانها القسطاس المستقيم الذى توزن به هو الذوق السليم ؛ فكل من الشكل المتناسق الجميل ، والنغمة العذبة ، والمعنى الرائع البديع ، يبعث فى النفس الحية شعوراً بالجمال ، وإن اختلف ذلك الشعور باختلاف الجنس ، وتباين البيئة

فى الرسم والنحت طريقة إدراك الجمال النظر ، ينظر الشخص الشكل المتناسق ، أو التمثال الجميل ، فيأخذ الإعجاب من نفسه مأخذا يتناسب مع درجة الجمال أولا ، ومع مقدار حظ المعجب من الذوق السليم والطبع الرقيق ثانياً .

والنغم طريق إدراك جماله السمع ، فما هو إلا أن يعزف الإنسان على آلة موسيقية ، أو يغنى ، أو يسمع غيره يعزف أو يغنى ، حتى يطرب لذلك العزف أو هذا الغناء ، أو لهما معا ، إذا صادف هوى فى نفسه ، وينقبض إذا نفر منه ذوقه .

أما المعانى فهى وإن كانت مختلفة فى الحسن متفاوتة فى مراتب الجمال ، فإنها تزيد شيئا آخر ، هو الثوب تكساه من اللفظ ، فإن الكاتب أو الشاعر يحوك لها من اللغة التى ينطقها ثيابا من الألفاظ . ثم يلبسها تلك الثياب ، ويخرجها للناس ، فيكون للفظ شأن أى شأن فى تجميل صورها ، فالمعنى الجميل الرائع إذا أخذه الكاتب الأديب ، أو الشاعر البليغ ، وألبسه من الألفاظ ثوبا أنيقا رقيقاً هفهافا ، تنظره العين ، فينطقه اللسان ، فتسمعه الأذن ، فيصل إلى النفس ، ويؤثر فيها تأثير الحيا فى العقول ، وذلك الحد الأعلى الذى ليس وراءه لكاتب أو شاعر غاية .

وقد يأخذ هذا المعنى الجميل الرائع شاد فى الأدب ، أو دعي ، أو فاسد الذوق

فيستكره له الألفاظ استكراها ، ويحوك له ثوبا سخيفا غير متسق ولا متناسق ، ثم يخرجه للناس فلا يرون منه إلا صورة بشعة تتقزز منها النفس الطيبة ، وينفر منها الذوق السليم ؛ ويكون مثله مثل القروية الحسناء تلبس ثوب الكتان الفضفاض ، تغدو فيه وتروح بشعر أشعث ، ووجه أغبر ، وقدمين حافيتين ملوثتين بالوحل ، فتلك قد وهبها الله جمالا استتر وراء تلك القبائح ، وذلك كالذى قيل من أن كلا من ابن كريمة والحسن بن هانئ وصف ممدوحه بالجمال ، وادعى أن قفاه بلغ من الحسن غاية فاقت حسن الوجوه ، فكيف بوجهه ؛ فقال ابن كريمة :

قفـــاه وجه والذى وجهه مثل قفـــاه يبلغ الشمسا

وقال الحسن بن هانئ :

بأبى أنت من غزال غرير بزحسن الوجوه حسن قفاكا

فالأول متكلف ، بعيد المأتى لتعقد مخارج ألفاظه مجتمعة ، والثانى قريب المأتى ، حسن النسج ، حلو اللفظ ، والمعنى فى البيتين واحد .

ثم تلك خمسة أبيات فى معنى واحد لخمسة من فحول المتقدمين ، أما المعنى فهو أن كلا منهم يريد أن يصف الممدوح بالجود والكرم ، حتى إنه كان يعطى سائله قبل أن يسأله ، وهذه هى الخمسة الأبيات .

قال أبو العتاهية :

وإنا إذا ما تركنا السؤا ل منه فلم نبغه يبتدينـــا

وقال مسلم بن الوليد :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وقال أبو تمام :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى

وقال منصور النمرى .

رأيت المصطفى هارون يعطى عطاء ليس ينتظر السؤالا

وقال سلم بن عمرو الخاسر القرشى :

أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال

اقرأ هذه الأبيات مرة واحدة ، وانظر فيها نظرة عجلى ، ثم ارجع إلى نفسك وتبصر ؛ أيها أعلق بذهنك وأدخل على نفسك ؛ لايتردد أحد فى أنه البيت الأخير ، بيت سلم الخاسر ، لأنه أعذب الخمسة الأبيات لفظاً ، وأحلاها ديباجة ، وأحسنها سبكا ، وأجودها حبكا ، وأكثرها وضوحاً ، وأقلها كلما ؛ لذلك كان أسرعها إلى القلب ، وأشدها علوقا بالذهن .

وقد يكون المعنى رديئا مرذولا فيتناوله الشاعر ، ويتخير له من جيد الألفاظ ستاراً يتوارى وراءه قبح المعنى ، فيعمى على الشادين والأدعياء ، ولكن ذلك لايخفى على الفطن اللبيب الخبير بفنون الأدب ، وضروب الشعر .

وأسوأ السيئات فى الأدب أن يقبح المعنى ، ويسمج الخيال ، ويشنع اللفظ .

وهناك معان عامة يستطيع أن يشترك فيها الأدباء على اختلاف نحلهم ، وتباين مللهم ، إلا أنهم يتفاوتون فى تصويرها بتفاوت مادة التشبيهات التى يستمدونها من البيئات التى يعيشون فيها ، لأن الانسان يولد طفلا ، وقوة الخيال عنده كامنة ، تظهر هذه القوة وتنمو كلما تقدمت به السن ، ولكن المادة التى تخصبها وتزيدها نماء ، لا يمكن أن تستمد إلا من صور الحياة المختلفة التى يتقلب فى أحضانها ؛ فالذى يقع عليه نظر العربى البدوى الذى ينتجع الكلأ ، ويرتاد مساقط الغيث ، ويسكن الخيام ، غير العربى الحضرى الذى يبتنى البيوت ، ويفلح الأرض ، ويتقلب فى أحضان النعيم ؛ والعربى السيد فى قومه ، الذى يملك زمام أمورهم ، ويتصرف فى شئونهم ، يستمد من عزه وسؤدده وشرف نفسه ونسبه ؛ والذى ينشأ فى أسرة مغمورة ، ألح عليها العسر ، وطال بها الفقر ، يغلب عليه أن تتدانى نفسه ، ويبذل ماء وجهه مادحا مستجديا محاولا أن يستدر أكف الموسرين ، ويتملقهم عسى أن يحرك عاطفة الرحمة فى قلوبهم ، فيبذلوا له ماهو فى حاجة اليه .

ومن هذه المعانى العامة أن الذى يهيم بحبيبه لايفتأ يذكره فى كل لحظة من لحظاته ، فى نجواه وعلانيته ، فى نطقه وصمته ، وقد يبرح به الحب حتى تراه مشدوها مولها ، تذهب به الأفكار كل مذهب ، فيصيح وقد براه الشوق ، وأهزله طول التفكير ، فالنحول والهزال نتيجة التفكير فى الحبيب ، وهذا المعنى صالح لكل

زمان ومكان، ولكنهم يختلفون باختلاف البيئة والزمان فى تصوير هذا الهزال فبعضهم يرى أن مابقى من جسمه لو علق يعود خلال لحمله العود ولم يتأود، وبعضهم يرى أنه «لولا تقلب طرفه دفنوه»، وقد يبالغون فيجعلونه «صدى أينما تذهب به الريح يذهب»

وبعضهم يقول:

لم يبق من جثمانه إلا حشاشة مبتئس
قد رق حتى مايرى بل ذاب حتى مايحس

من ذلك ترى أن المعنى العام حق شائع، ليس لأديب دون غيره، والفضل لمن له القدرة على حسن تصويره، فيلحقه بجميل تصويره بالمعنى الطريف.

وكل ماذكرنا هو طريقة الحكم الطبيعى، والتقدير المبنى على قوانين الصناعة، ولكن ثمة طائفة من الذين يبحثون فى الأدب: وآثار البلغاء والشعراء، تختلف وجهة نظرهم اختلافا كبيراً، لا من طريق حسن تصوير المعنى، ولارقة اللفظ، ولكن من طريق تباين الميول النفسية، والعصبية القومية أو المذهبية ومن اختلاف التربية، فالذى يميل إلى معاقرة الخمر، ومغازلة الحسان، وكثرة الدعابة يتغنى دائماً بشعر عمر بن أبى ربيعة، والحسين بن الضحاك، وأبى نواس، ومن لف لفهم، والذى يركن إلى الحكمة والفلسفة، والمقدمات المنطقية التى تستنبط منها النتائج يغوص وراء المعانى التى يحتويها شعر أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى ومن نحا نحوهما، ومن ينشأ تنشئة حربية يميل كل الميل إلى المعانى التى تستفز النفس، وتلهب الشعور، وتوقد الحمية، وتنسى المحارب نفسه فيبذلها رخيصة فى سبيل قهر أعدائه والانتصار على خصومه.

ومن سوء حظ الأدب والأدباء أن العصبية والهوى لازما الأدب ونقده منذ كان وإلى الآن، ألا ترى أن المتقدمين كانوا يختلفون بسبب تباين الميول والأهواء فى أمدح بيت، وأهجى بيت، وأغزل بيت، وغير ذلك، بل كان الأئمة أنفسهم يختلفون فى تقدير الشاعر الواحد، فبعضهم يتخذ له مقعدا فى السماء، والبعض الآخر يغمره فى الماء. وقد حكى ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد أن

الأصمعى كان يصف شعر عمر بن أبى ربيعة بأنه الفمستق المقشر لا يشبع منه (وقد نسب ذلك صاحب الأغانى لحماد الراوية) فى الوقت الذى كان فيه جرير يستبرده ويقول: شعر حجازى لو اتخذ فى تنور لوجد البرد فيه؛ فما أعظم الفرق بين هذين الرأيين فى شاعر واحد لإمامين من أئمة الأدب

وكثيراً ما ترى الشاعر الواحد يمدح فلانا اليوم، ولأمر ما يوسعه هجواً وذما غداً، فكم مدح بشار بن برد واصل بن عطاء، وأعجب ببلاغته فقال فيه أيام كانا على اتفاق فى الرأى واتحاد فى المذهب:

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلب

فلما اختلفا وتباينا قلب بشار لواصل ظهر المجن. وأخذ يعيب عليه لثغته، ولقبه بالغزال، وقال فيه:

ما لى أشايع غزالا له عنق كعنقنق الدو إن ولى وإن مثلا

وكذلك الشأن فيما جرى بين أبى الطيب المتنبى وكافور الإخشيدى، فإن من يتتبع شعر أبى الطيب يجده كان يكيل المدح لكافور كيلا، ويكنيه أبا المسك لسواده، ويعترف به حاكما عادلا، وسياسيا محنكا، وهو الذى يقول فيه:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ، تملى على فأكتب

فلما لم ينل منه ما كان يريده ثمنا لذلك المدح الطويل فى ذلك الشعر السائر، بعد أن عرض حاجته فى مثل قوله:

فارم بى ما أردت منى، فانى أسد القلب، آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك، وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

- تجهم له، ولبس فروة الأسد، وأخذ يهش فى عرضه، ويسمه بميسم العار، ويكنيه أبا البيضاء ويقول فيه:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويقول :

ولا تُرجّ الخير عند امرىء مرت يد النخاس فى رأسه

٥٥٥

وقد تتدخل العصبية فى الحكم على الشاعر فى مجموعه : معانيه وألفاظه وأخيلته ، فيخالف الحاكم جمهرة الباحثين ، لأن الشاعر حجازى والحاكم حجازى مثلا ، أو لأن الشاعر قحطانى والحاكم عدنانى مثلا ، انظر إلى كثير وجميل ، فإن أهل العلم بالشعر والأدب والرواية على أن كثيراً وإن كان قد تتلمذ لجميل وأخذ عنه ، واستقى من معانيه ، أشعرُ منه . وقد ذكره ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء فى الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين ، وجعله فى صف البعيث والقطامى ، فى حين أنه جعل جميلا فى الطبقة السادسة الإسلامية مع الأحوص وعبد الله بن قيس الرقيات ونصيب ، ولما كان كثير حجازيا فإن أهل الحجاز يقدمونه حتى على جرير والفرزدق والأخطل ، وكانت ربيعة تتعصب للأخطل وتفرط فى مدحه ، وتقدمه على الفرزدق وجرير ، لأنه ربعى ، مع أن الجمهور على أنه أقل شأناً منهما ؛ قال أبو الفرج الأصفهانى : (فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ، ولا له مثل مالهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما فى سائره) وقد لا تؤثر هذه العصبية فى حسن الصداقة بين شاعر وشاعر ، إذا تكاملت أخلاقهما ، فقد روى الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين أن الكميت بن زيد الأسدى ، والطرماح بن حكيم الطائى ، لم ير الناس أعجب حالا منهما فقد (كان الكميت عدنانيا عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً ، وكان الكميت شيعياً من الغالية ، وكان الطرماح خارجيا من الصفرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه) .

وإنما المألوف فى عامة الطبائع البشرية التى لم تصل إلى درجة التهذيب الكامل أن يكون للهوى والحب والصداقة أثر فى الحكم ، فكثيرا ما يمتدح

الشاعر أو الباحث فى الشعر والرواية فلانا الشاعر وإن أساء لأنه صديقه ، ولأنه يعتقد أن شروط الصداقة ،وأصول المحافظة عليها ، ترتفع فوق كل اعتبار ، وتمنعه من إظهار سيئات الصديق وإن كانت ظاهرة واضحة ، وليس ذلك فقط ، بل هو يحاول أن يلبس تلك السيئات ثوبا يخفيها على الجمهور ، ويظهرها للناس حسنات ولكنه ثوب تمام يشف عما تحته ؛ ومن الناس من تغلب عليهم التقية ومجاملة الشعراء ، فيكون من صفاتهم أنهم لا يحقرون شاعرا بين إخوانه ، ولا يأخذون أحدا بالنقد ؛ قال زهير بن أبى سلمى :

وذى خطل فى القول يحسب أنه مصيب ، فما يُلمم به فهو قائله
عبأت له حلما ، وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وذلك إما لأنهم يعتقدون أنهم فى القمة ، فرفعهم من شأن غيرهم لا يضيرهم لأنهم لا ينالون مرتبتهم ، وإما أن يفعلوا ذلك حذرا من أن يقول أحد المغمورين بيتا فيهم ، فيسير هذا البيت بين الناس ، ومن هؤلاء الأفذاذ الذين كانوا يصانعون غيرهم ممن هم أقل منهم شأنا البحترى الذى كان لا يذكر بحضرته شاعر محسن أو غير محسن إلا قرظه ومدحه وذكر أحسن ما فيه ، ومنهم دعبل الخزاعى ، فانه كان يعرض للملوك والأمراء ويهجوهم ؛ ولكنه لا يتعرض لشعرائهم إلا ضرورة ، وقد ذكر الآمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى عن دعبل قال : (وقد حذر — يعنى دعبل — فى أول كتابه الذى ألفه فى الشعراء ، من التعرض لشاعر ولو كان من أدون الناس صنعة فى الشعر ، وقال : رب بيت جرى على لسان مفحم قيل فيه : رب رمية من غير رام ، فسارت به الركبان)

وعكس ذلك حاصل ، فقد يعتد الأديب الناقد بشعر طبقة من الشعراء دون غيرها ، أو يكره الشاعر أو الباحث فى الشعر فلانا الشاعر لأمر ما ، أو يستثقل روحه فى مجموعه ، أو يحسده على نبوغه ، فيجعله ذلك يطعن عليه فى كل قول يقوله وإن أحسن وأجاد ، فإن ابن الأعرابى كان يسمع الشعر فيستحسنه ويستجيده ويأمر بكتبه ، وإذا علم بعد ذلك أن قائله أبو تمام ، حكم بتخريفه ، وأمر بشطبه ، وإن إسحاق بن ابراهيم الموصلى أنشد الأصمعى يوما :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروّى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال الأصمعى : لمن ينشدنى ؟ قال ! لبعض الأعراب ، فقال ! والله هذا هو الديباج الخسروانى ، فقال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فرد عليه الأصمعى لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ فانظر إلى الأصمعى وهو من هو فى فنون الشعر رواية ودراية يستجيد البيتين أولا ، لأنه لا يعرف قائلهما ، ويراهما ديباجا خسروانيا ، ثم يرتد فى الوقت نفسه ، وينقض حكمه ، ويقول : إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما عند ما عرف قائلهما ؛ ومهما انتحل المتصرون له الأعذار فإن هذا ما كان ليصح أن يتورط فيه عالم كبير مثله .

ولم أذهبْ بك بعيدا ، وأرجعك إلى الوراء قرونا ؛ فعندنا الآن أمثلة واضحة تؤيد هذا الرأى ؛ لعلك قرأت الروايات التمثيلية المسرحية التى أظهرها فى ثوب الشعر أمير الشعر فى عصرنا الحاضر غير منازع ، وفتح بها فى عالم الأدب العربى فتحا جديدا ، ولعلك تذكر منها رواية قمبيز ، فإنها بمجرد ظهورها ، تناولها أحد الحاقدين عليه ، الحاسدين له ، وأخذ يتنقصها فى كل ناحية من نواحيها ، فى موضوعها وموضعها ووقائعها ومعانيها وديباجتها ، وليس ذلك فحسب ، بل ينظم أبياتا من عنده فى المعنى الذى قاله المرحوم شوقى ويقول : لو قال كذا لكان أجاد قولا ، ولو وضع هذه الأبيات مكان تلك لكان أحسن صنعا ؛ وفى كل هذه الرواية الطويلة لم يذكر لشوقى أية حسنة من حسنات الشاعر المجيد المكثر الذى وضعه غير المغرضين فى مصر وفى غير مصر فوق القمة .

وغير قليل من الباحثين ، وسواء فى ذلك السابقون واللاحقون ، يتورطون عند ما يبحثون فى هذه المعانى ، وفيما يمكن أن يقال عنه : تاريخ نشأتها ، فيحكمون بأن فلانا هو الذى اخترع هذا المعنى ، وهو أول من قاله ، ثم جاء من بعده فلان فسرقه منه .

لم لا يكون الذى سموه مخترعا ، ونسبوا له فضل الاختراع ، سارقا من غيره من الذين تقدموه أو عاصروه ، ولكنهم لم يصل علمهم إلى المسروق منه ، لأن

معناه قد باد فيما باد من كلام المتقدمين ولم يقف عليه غيره ، أولأنه قاله رجل مغمور من السوقة ، وسمعه هذا الفحل فأخذه منه ، ونسبه لنفسه ، فشاع مع كلامه ، ونسبه الناس له لا لغيره . والذى حكم عليه بأنه سارق ، لم لا يكون هو قد اخترع المعنى اختراعا ، وابتدعه ابتداعا من غير أن يعلم أن غيره قد سبقه إليه ، وأن معاصرا له يعيش فى بلد غير بلده ، اهتدى الى هذا المعنى كما اهتدى هو إليه ؛ فمن ذا الذى يستطيع أن يرجح أن ديك الجن عبد السلام بن رغبان أخذ قوله فى وصف الخمر:

تظل بايدينا نقعقع روحهـــا وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

من قول أبى تمام الطائى :

إذا اليـــد نالتها بوتر توفرت على ضغنها ثم استقادت من الرجل

أو أن أبا تمام أخذه من ديك الجن ، لا يستطيع أحد ذلك لأنهما كانا فى عصر واحد ، فلا يمكن أن نقطع بأن أحدهما أخذ من الآخر ، كما لا يمكن أن نقطع بأن كلا منهما قد اخترع المعنى اختراعا ، فاتفق فيه خاطراهما ، أو أن أحدهما سرق من مجهول سابق والآخر مبتدع . وكذلك الشأن فى مريم بنت طارق وجرير ، فقد قال جرير يرثى الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر

وقالت مريم ترثى أخاها فى أبيات أنشدها ابن الأنبارى فى أماليه :

كنا كأنجم ليـــل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

فإنه يمكن مناقشة هذا المعنى فى هذين البيتين مناقشة سابقة .

ولقد حدثنى أحد أشياخى الشعراء — رحمه الله — يوماً أنه قال بيتاً من الشعر ، وصدر به إحدى قصائده ، واشتمل هذا البيت على معنى أعجب هو به إعجابا كثيراً ، حتى كان يتغنى به فى خلواته ومضى على قرضه هذا البيت الذى ظن أنه لم يسبق إلى معناه بضع سنين ، ثم وقع على قصيدة لشاعر قديم لايحضرنى اسمه ، فاذا به يصدر قصيدة له ببيت معناه هو بعينه معنى بيته ، ولفظه يكاد يكون

لفظه ، فبهت ؛ فهذان شاعران بين زمنيهما قرون طويلة ، ومع ذلك اتفق خاطراهما ليس فى ذلك المعنى فحسب ، بل وفى كثير من الديباجة واللفظ .

ولقائل أن يقول : إن الشاعر لا يكون شاعرا إلا إذا قرأ كثيرا من شعر المتقدمين ، وحفظ ما استطاعت حافظته أن تقتنصه من دررهم ، ثم هو مع الزمن ينسى ما حفظ ، ولا يبقى منه فى ذهنه إلا صور عامة هى المعين الذى يستطيع أن يستمد منه حسب قدرة قريحته على إمداده . لذلك قد يجىء فى تضاعيف كلامه معان وتراكيب هى لغيره من غير أن يفطن إلى ذلك ، ويظن أنه ليس مسبوقا إليها ، وقد تورط فى ذلك المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، فكثيرا ما ضمن قصائده أبياتا أو أنصاف أبيات هى لغيره ، من غير أن يفطن إلى هذا التضمين لكثرة محفوظه .

***

وقد تقع على المعنى الواحد لشاعرين ، أحدهما مخترع سابق ، والثانى سارق لاحق ، وضعه كل منهما فى بيت من الشعر ، ولكن بيت السارق اللاحق يكون أكثر شيوعا بين الناس من بيت المخترع السابق ، لأنه أشرح وأوضح ؛ انظر إلى قول أبى تمام الطائى ، والكميت بن ثعلبة ، فى أن السيف هو الذى يعول عليه ، لا أقوال الكهان ، وتنبؤات المتنبئين ، قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وقال الكميت :

ولا تكثروا فيها اللجاج فإنه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

والكميت أسبق زمناً من أبى تمام ، فهو أسبق إلى اختراع المعنى ، ومع ذلك فإن بيت أبى تمام شاع حتى على ألسنة كثير من العامة ، لأنه كما قلنا أشرح وأوضح بخلاف بيت الكميت فإنه لم يعرفه إلا الخاصة .

وقد يسير البيت لكونه أحلى لفظا ، وأحسن ديباجة ، قال عمرو بن العلاء لمحمد بن سلام : أى البيتين عندك أجود ؟ ، قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقال : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن .

مما تقدم نعلم أنه لا يصح أن نجزم بأن هذا المعنى مسروق ، وأن المخترع له فلان ، بل نحكم بالغلبة والترجيح ، فنقول : يغلب ، أو نرجح أن هذا المعنى الذى قاله فلان ، مأخوذ من قول فلان ، والقطع لا يأتى إلا إذا اعترف الشاعر نفسه بأنه أخذ من غيره ، كما حدث بين أبى تمام وابن أبى دواد ، فإنه لما سمع قول أبى تمام :

وما سافرت فى الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى

مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركابى فى البلاد

سأله عن هذا المعنى حين أنشده القصيدة فقال : أهو مما اخترعته فأجاب : أخذته من قول ابن هانئ :

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

فاعترف أبو تمام نفسه أنه أخذ المعنى من ابن هانئ .

ومع ذلك فإن وصف الشاعر بأنه سرق فيه شىء كثير من التساهل فى إطلاق هذا اللفظ ، لأن الشاعر المكثار أيا كان مقامه بين الشعراء ، ومهما كان قادرا على اختراع المعانى ، فإنه لا يستطيع أن يأتى بإحدى مطولاته وأكثر معانيها — فضلا عن كل المعانى — مخترع ، ولكن الباحث يكتفى ببضعة معان جديدة يأتى بها الشاعر المفلق فى قصيدته الطويلة التى قد تتضمن عشرات المعانى ، وكلما كثرت المعانى المخترعة وجادت كانت القصيدة أعلى مقاما ، إذ لا يمكن أن تجد شاعرا وكل معانيه مخترعة ، بل بعضها مخترع ، وبعضها مأخوذ من غيره .

ويزيد مكان القصيدة سموا ، صحة اللفظ ، وإشباع القول ، وجودة التشبيه ، وإصابة الحقيقة . ؟

محمد أحمد برانق